الخلاص

ما بين انبلاج الفجر بقليل والظلمة التي تحكم قبضتها على الكون، سار في هوان وذل تحت ضوء القمر، الذى انفلت من بين السحب الرمادية الكثيفة يطل على رحيله المفاجئ من القرية، التي عاش فيها عمره كله !! لم يتخيل في يوم ما أنه سيتركها هكذا متسللاً في خفية، يتخذ من غبشة الليل ستاراً يواريه عن أعين الناس، وسؤالهم الاستفساري»إلى أين ؟!! ولماذا هذا الرحيل المفاجئ ؟!!»

عواء الذئاب ونباح كلاب ممزوج بصوت طائر الليل الحزين، يتردد من حوله، فيبطئ من خطوه المثقل بالهموم والعذاب، حتى تدنو منه ابنته نجية، يلتفت نحوها وقد علا غضبه .. وركبه انفعاله، بينما نجيه قد أيقنت بأنه يضمر لها الشر، وقد ارتابت فيه ولكنها لا تستطيع الإفصاح أو حتى الاستفسار عما يضمره لها، ترتبك

ويعلوها الاضطراب وهي تقول فى توجس :»وجفت ليه يا بوي ؟!!»

تبرق عين الأب بالشر وتقذف بالحمم تحت سنا القمر ويخرج صوته المعذب متردداً ومتلعثماً، بينما السحب الكثيفة تزحفت على القمر فتغطيه، فتسود العتمة، وهو يقول بصوت مبحوح :» عملتى كده ليه يا بنتي فيَّ ؟!!»

تتلعثم نجيه فى ذعر، ويلفها الخجل وعذاب الضمير، وهي تقول في اضطراب وربكة وقد شحب وجهها وتقطعت أنفاسها، وارتعش جسدها، وكادت أن تهوى إلى الأرض:

« عملت أيه يا بوي ؟!!»

« مرغتِ شيبت أبوكِ فى الوحل !!»

التعب والعرق المنهمر من جبهته، وهو ينظر لها بنظرات ذاهلة مذبوحة طلت من عينيه، تحمل بعض الشفقة والرحمة على تلك الابنة، التي كانت روحه وكل حياته . فقد عوضه بها الله بعد رحيل أمها، الآن أصبحت في نظره منبوذة تستحق الذبح !! ولكن يده لا تقوي على أن يخرج الخنجر الذي كان يخفيه بين طيات ملابسه، ويغرزه في جسدها النحيل، لقد أعد نفسه لتلك اللحظة التي يستطيع فيها الخلاص من عاره، وهما في هذا المكان

المقفر، ولكنه لم يقو تراخت أعصابه وتحجرت الدموع في عينيه، وهو يشفق عليها، يعطيها ضعفه ويواصل سيره في صامتٍ، وبؤس وعذاب !!

« همي نلحق الجطر، ونشوف بلد تآوينا أنا وأنتِ بعيد عن الخلج اللي تعرفنا هنا ونعيش أنا وانتِ في بلد ما تعرفناش»

يمضي في هذا الطريق المقفر، وقد تعاركت بداخله كرامته وقلة حيلته، وهوانه على الناس، وهو فى أقصى حالاته من التوتر والانفعال، راضياً بما اتخذه من قرار لم يغضب فيه الله، ولم تتلوث يده بآثم ويقضي على ضحية لم تفقد عذريتها بإرادتها، بل كان الذنب على هذا الذئب البشري الذي لم يستطع نزاله لسطوته وجبروته، وعزوة أهله !!

***

على كورنيش النيل جلسا بعد أن هدهما التع، فأخذ يفكر في مكان يآويهما، وفي عملٍ يصون له كرامته وعزة نفسه !! وظل غارقاً في همه يناجي ربه بأن يرفع عنه هذا الكرب، ولم يشعر بهبوط الليل عليه وقد فرش ظلمته عليهما، ويشاركهما محنة البحث عن مكان يبيتان فيه، الحسرة تأكل أحشاء قلبه، والحيرة تضغضغ عظامه، لا

يدري ماذا يفعل ؟!! في تلك المصيبة التي جلبتها عليه ابنته وجعلته في هوان من بعد عزة !! كان يسير بين الخلق مرفوع الرأس، تنظر إليه نجية من طرفٍ خفيٍ ويعترك بداخلها الندم والحسرة ووخز العذاب، وهي ترى أبوها الذي ما أحبت شخص في الحياة غيره يتعذب في صمتٍ حزين، لم تكن غلطتها وحدها !! وليس الذنب ذنبها، هجم عليها مخدومها وسلبها أعز ما تملك، قاومت وبشدة ولكن خارت إرادتها واستسلمت !! وتبرئ من فعلته الدنيئة وهدد الأب الملكوم بفضحه إن فتح فمه !! فكان على الأب المسكين أن يرضى بذله وهوانه أن أراد أن يحافظ على لقمة عيشه !!

الآن عليها أن تستجمع كل قواها وشجاعتها، وتتخذ قراراً يريح هذا الأب المسكين من عذابه وبؤسه !! الآن عليها أن تتخذ قراراً يريحها من هذا العار الذي جلبته !! واندفعت نجية بكل هوسها وعذابها وجنونها تعدو في صخب وجنون نحو الكوبري وهي تصرخ بكل عذابها :

« أنا ها أريحك من عاري ياباه !!»

وقد انسلت من جوار الأب الغارق في همه ويأسه، وقراراً بالخلاص يلوح أمام ناظريها !!

وأفاق الأب المصدوم على اندفاع كريمته وجسدها المغتصب من ذئبٍ بشري لم يرحم توسلها يطش في ماء

النهـر الراقـد في وداعـة محتـداً عـلى هـذا الظلـم !! ويؤجـج سـكون الليـل النعسـان في خـدر الدنيـا .

ضـاع صراخ الأب الملكـوم، وسـط صيـاح واسـتغاثة بعـض المـارة وهـم يشـهدون البـدن المقهـور يغـوص ويطفـوا في حضـن النهـر، وبكـف أمـين الشرطـة تربـت بحنـو عـلى كتـف الأب المتشـنج في نحيـب مريـر في استفسـار :

« هو أنت تعرفها يا حاج ؟!!»

كفكـف دمعـه السـاخن المـدرار، وطـاف بعينيـه الذاهلتـين في تلـك الوجـوه المصدومـة مـن هـذا المشـهد ولفـه الصمـت الحزيـن ولم يقـوي عـلى الـرد !! فأعـاد عليـه الأمـين سـؤاله :

« هل تعرفها ؟!!»

تحشرجـت الكلـمات في جوفـه الجـاف مـن بلـة ريـق، وتمتـم في عـذاب يحـاول تحريـك تلـك الأحـرف السـحيقة المنحـشرة في سـقف حلقـه، وطاف ببؤسـه في الوجـوه التي تطالعه في مواسـية، ثـم تحـط عـلى صفحـة مـاء النهـر الـذي عـاد لاسـترخائه، هـز الـرأس في انكسـار وخـزي، وفـرت دمعاتـه السـاخنة طشـت عـلى صفحـة المـاء البـارد فتؤججـه، وتتمنـى في توسـل أن يلفـظ هـذا النهـر مـن جوفـه جسـد حبيبـة قلبـه وتعيدهـا لدنيـاه !! ولكـن هيهـات أن تبلـغ الـروح التـي شـاخت في تلـك اللحظـة مـا تمنـت !!

ساوره الشك من هذا الحزن البليغ الذي تدثر خلفه كل خلجاته، فأعاد طرح سؤاله عليه في حدة :

« هل هذه الفتاة ابنتك ؟!! »

غرز نظرته الأسيفة لأسفل كي يخفي معها بلاءه، وقال في شجن وعذاب :

« لا، لا، لا أعرفها !! »

وألحق جملته الشجية بانسحابه من المكان وهو يجرجر خطواته الكسيحة المسحوقة من مر الفراق، ومشيعاً ذلك النهر الذي ابتلع أعز ما يملك، بنظرة حزينة غامت في عينيه تنعي في صمت كتوم، زهرة القلب التى فارقته واختارت أن تريحه من هذا العار !! وتخلصه من هذا الذل وهذا الهوان !!

القاهرة في / ٢٠ ـ ١١ ـ ٢٠١٥